ابن رشيق

ـ من محاضرة الاستاذ عبد العزيز الراجكوتى ـ

﴿ صاحبنا الهرم بصقلية ﴾

من سوء الحظ ليس بأيدينا من تاريخه بصقلية مايرشدنا . وأسبابه على ماهو الظاهر (١) أنه لم يعمل هناك عملا يصلح للذكر أصلا أو على ما بلغنا (٢) هذا العهد كان عهد هرمه وهمومه (٣) ملوكها الحسنيون كانوا يتحاربون فيما بينهم وطلبوا الطاغية الذى كان فتح معظم الجزيرة فى هـذا الأوان كما قال الشريف الادريسى فى نزهة المشتاق[1] :

« ولما كان في سنة (كذا) اربعمائة وثلاث وخمسين سنة افتتح غُرّر بلادها وقَهرَ بمن معه طغاة وُلاتها وأجنادها الملكُ المعظم رجار بن تنقريدسخيرة ملوك الافرنجيين » .

ولا يبعد أن يكون صاحبنا ضاع فى هذه المناوشة (٤) مَن يؤرّخه ؛ فان جميع مسلمى الجزيرة كانوا بما فاجأهم حيارى تراهم سُكارى . وأما مسلمو افريقية فانهم لم يخذلوهم فى نائبة فيما سبق وكانوا فى هـذا الزمان مشغولى البال بما نابهم . الا الشريف الادريسى فانه يرى بيضة الاسلام بالجزيرة قد تمزقت والمسلمون قد نُكبوا وهو مع ادعاء السيادة والشرف بشمت بنكبتهم شماتة أعداء الدين . اللهم إنا نعوذ بك من شماتة الاعداء . وهذا كل ما عثرنا عليه من هـذا البلبب . قال ابن بسام فى الذخيرة على ماقل عنه ابن فضل الله[2] :

« فخرج ابن رشيق يومئذ [يوم أحرق المعزّ قصيدته على ما مرّ] من عنده على غير طريق وكان وجهته الى صقلية . وكان ابن شرف قد سبقه اليها وقد

(١) أمارى ص ٢٦ (٢) أمارى ٦٠١

قتله (؟) عليها . وكان قد وقع بينهما بالقيروان ، ما وقع بين الخوارزمىّ وبديع الزمان . فلما اجتمعا يومئذ بصقلية تنمّر بعضهما لبعض ، وتشوّق أعلام البلد لما كان بينهما من ابرام ونقض . فقصد ابنَ رشيق بعضُ اخوانه وقال له : أنتما علما الاحسان ، وشيخا أهل القيروان . وقد أصبحتما بحال جلاء ، وبين الاعداء . والأشبه بكما أن لا تغريا أديمكما ، ولا تطعما الاعداء لحومكما . فقال له ائت ابن شرف . فوجده أجنح للسلم ، وأدنى الى الحلم . برىء اليد من صبيه وصعده ، وأعطاه بذلك صفقتَىْ لسانه ويده . وكان ابن رشيق ربما اعترض وتعرض ، وتحلب وتلظ . وأما ابن شرف فلم يحلّ ملعقد ، ولا حال عن [ما] عهد

* * *

قال أصحاب المعجب[1] والمعالم[2] ونفح الطيب[3] وغيرهم ان ابن شرف استنهض ابن رشيق [ولعله بصقلية أو افريقية] الى الاندلس فأجابه :

عما يزهدنى فى أرض اندلس سماع معتضد فيها ومعتمد
أسماء مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صولة الاسد

قالوا فقال ابن شرف :

إن تَرْمِكَ الغُربةُ فى معشر قد جُبل الطبع على بُغضهم
فدارِهم مادمتَ فى دارهم وأرضهم مادمتَ فى أرضهم

إلا أن الذى تحقق لدىّ بعد طول البحث أن الاولَيْن ليسا لابن رشيق بَتّةَ والآخرين يمكن أن يكونا له ولكن فى جواب غير البيتين السابقين وعُمدتى على عدّة دلائل :

(١) المعتضد وابنه المعتمد لم يكونا أساآ إليه حتى يستوجبا الهجو منه ، بل

(١) ص ٩٠ ليدن (٢) ٣ : ٢٣٩ (٣) مصر ١ : ٩٩ وليدن ١ : ١٣١

كان المعتضد طلبه فلو وصل بحضرته كما كانا يتمنيان فما كان يعتذر به عن الهجو إذن ؟

(٢) عزا البيتين ابنُ خلّكان فى ترجمة ذى الوزارتين أبى بكر بن عمّار إليه وذكر للهجو خبراً قرينا بالصواب [١]

(٣) ما كان المعتمد جلس بعدُ على كرسىّ الملك ولا تلقّب بالمعتمد فأنه مَلك سنة ٤٦١ [٢] ومات صاحبنا على قولٍ [٣] فى السنة ٤٥٦ هـ وابن شرف فى السنة ٤٦٠ هـ فهل من الممكن أن يهجوه بعد موته ـ وأنا أعتقد وقوع القصة استبعاداً لا مزيد عليه ـ وما أكثر ما يتبع السامعون فى مثل هذه المواقع الظنون ـ على أن لفظ الانشاد ربما أوهم السامع أن البيت للمنشد فوقع فى وادى الضلال.

وأما بيتا ابن شرف فلا أستبعد أن يكونا لعلى بن فضّال (وفضالة سبق قلم) المجاشعى القيروانى المتوفى سنة ٤٧٩ والمترجم له فى معجم الادباء (٥ : ٢٨٩) على ما فى المعاهد [٤] ـ ثم يكون بدا له أن يمتحن سُوسه فى هذه الصنعة من التجنيس التى امتاز بها أبو الفتح البُستى فيكون قال على ما فى المعاهد أيضاً [٤]:

يا ناويا فى معشر قد اصطلى بنارهم
ان تبك من شَرارهم على يدَىْ شِرارهم
أو ترم من أحجارهم وأنت فى أحجارهم
فما بقيت جارَهم فنى هواهم جارِهم
وأرضهم فى أرضهم ودارهم فى دارهم

(١) ملخصه أنه ولاه على كورة تدمير فتغلب عليها مستبدا بها وكتب الى ولى نعمه كتبا لم يراع فيها جانب الادب وهجا المعتمد وأباه ببيتين ثم ذكرهما ٢ : ٧

(٢) الوفيات ٢ : ٢٩ (٣) الوفيات ١ : ٣٣٣ (٤) ٢ : ٧٠

أو يكون العزو على العكس أى البيتان يكونان لابن شرف وهذه الأبيات لابن فضال الا أنه لا شك أن البيتين الداليين ليسا لصاحبنا مرة

ملوك الطوائف بالاندلس وان كان كل منهم يتسمى بالخلافة وينتمى الى الالقاب السامية الا أنه كان فى عهدهم لعلوم الآداب والاوائل نهضة لم تقدر لتلك البلاد قبله ولا بعده ـ وهذا أبو الفضل[1] الدارمى لما رأى ما حل بالقيروان ارتحل منها الى سوسة ثم منها الى دانية ثم الى بلنسية ثم الى طليطلة فأكرم مثواه صاحبها المأمون بن ذى النون وأجزل قراه وتوسع له ولخدمته وأجرى له ستين مثقالا فى الشهر الواحد ثم وصل باستمرار جرايته بعد وفاته سنة ٤٥٥ هـ على حاشيته وتلامذته على ما فى المعالم . وأما ملوك بنى العباد فإنا نراهم فى تربية المعارف وجلب أهل الفضل من كل صقع سابق الحلبة وكان المعتمد أفضلهم وأنبههم . ذكر العماد[2] وابن خلكان[3] أن المعتمد أرسل إلى كلّ واحد من أبى العرب الزبيرى الصقلىّ وأبى الحسن الحصرى خمس مائة دينار ليفدا اليه بالاندلس فكتبا اليه على الولاء :

لا تعجبن لرأسى كيف شاب أسى ... واعجب لأسودعين[4] كيف لم يشب
البحر للروم لا يجرى السفين به ... الا على غرر والبرّ للعرب

***

أمرتنى بركوب البحر أقطعه ... غيرى لك الخيرُ فاخصصه بذا الداء
ما أنت نوح فتنجينى سفينته ... ولا المسيح ـ أنا أمشي على الماء

ثم لما استولى رجار الافرنجى على صقلية انجلى أبو العرب عنها ووصل بحضرة المعتمد وكان صاحبنا يتردد فى أول أمره فى ركوب البحر والجواز الى الاندلس عادة العرب من قديم كما يظهر من قوله :

(١) العالم ٣ : ٢٤٢ (٢) فى الخريدة أمارى ٦٠٨ (٣) ١ : ٣٤٣ (٤) ؟ عينى

البحر صعب المرام مُرٌّ لا جُعلت حاجتي اليه
أليس ماءً ونحن طين فما عسى صبرُنا عليه

وقوله (عن مراكبِهِ البيتين) إلا أنه لما علم رغبة المعتضد فى جلبه عزم على الانضواء اليه وليكن لم يوفق كما قال ابن بسام [1]

« أخبرنى بعض وزراء اشبيلية قال جهز عباد (المعتضد) بعض التجار الى صقلية وكان ابن رشيق كثيراً ما يسمع بذكر عباد فيرتاح الى جنابه، ارتياح الكبير الى شبابه. فلما سمع بمقدم ذلك التاجر لزم داره وجعل يتردد اليه وينشاه، ويقترح عليه لقاء عباد ويتمناه. والتاجر يعده ويمنيه، ويقرّب له ذلك ويدنيه. حتى أسمحت الرياح، وأمكن فى ميدان البحر المراح. ذهب التاجر لطيّته، وخلى بين ابن رشيق وأمنيته. وأخبر التاجر عباداً بذلك كله يتبجّح له بما هنالك. فتابع عباد فى نكاله، وأمر باستصفاء ماله. ثم رام ابن رشيق بعد ذلك ركوب البحر فخشن له مَسُّه، ولم تساعده على ركوبه نفسه. فقال البيتين »

﴿ وفاته ﴾

قالوا انه توفى ببلدة مازَرَ (Mazzara) التى نسب اليها الامام المازرىّ [2] صاحب المُعْلِم بفوائد كتاب مسلم. والظاهر أنها آخر بلدة بصقلية خروجا الى أيدى الفجار أصحاب رجّار، لانها هى ومرساها المسمى مرسى علىّ كانا تجاه المهدية من افريقية. فكأن المسلمين تقلصوا من أعماق الجزيرة هناك اينتهزوا فرصة الخروج. قال الشريف الادريسى [3] إن الناس كثيرا ما ينتقلون من

(١) مسالك الابصار أمارى ٦٥٣
(٢) أبو عبد الله محمد بن على المازرىّ الفقيه المحدث ترجم له ابن خلكان ١ : ٤٨٦
(٣) نزهة المشتاق أمارى ٤٠

إفريقية الى مرسى علىّ، ومنه الى مازر اثنا عشر ميلا

وأما عام وفاته فهو على ما قال ابن خلكان[1] سنة ٤٦٣ هـ وفيه توفى مُسند العراق أبو بكر الخطيب البغدادىّ ثم قال « ورأيت بخط بعض الفضلاء أنه توفى سنة ست وخمسين وأربعمائة بمازر والاول أصح » ثم قال بعد نحو سطر «وقيل انه توفى ليلة السبت غرة ذى القعدة سنة ٤٥٦ هـ ». وفى مختصر إنباه الرواة بأنباه النحاة « مات بمازَرَ فى طِلِق (خارج) سنة خمسين واربعمائة » . فعمره على القول الاول ٧٣ عاماً وعلى الثانى ٦٦ . وأما السنة ٤٥٦ المذكورة فى كشف الظنون فأظن أصلها من ابن خلكان

وأما صاحب البساط[2] فهاك تذييله قال أولا أنه توفى سنة ٤٥٦ هـ ثم قال : وقال ابن خلكان سنة ٤٥٣ وهو عام ارتحاله إلى صقلية والأول أصحّ عندنا لأن غالب أصحاب التراجم متفقون على أن ابن رشيق توفى وقد بلغ سنه سبعين وهذا ما يؤيد ولادته فى حدود عام ٤٨٥ هـ والله بالحقيقة أعلم اه

أقول ولا أرى فى هذا صوابا غير قوله والله بالحقيقة أعلم . فقد علمت ان ابن خلكان لم يختر من الاقوال إلا قول سنة ٤٦٣هـ وذاك أيضا فى أسماء الاعداد لا الارقام حتى يتداخله الشك ولا يقال ان سنة البساط ٤٥٣ من غلط المنضّد لان قوله بعد هـذا « وهو عام ارتحاله الى صقلية » يؤيد انه لم يعزُ إلى ابن خلكان إلا عام ٤٥٣ فانه لم يرتحل الى صقلية إلا فى هذه السنة ثم أخذ ينقب عن شاهد لعام الولادة الذى ذكره أعنى سنة ٤٨٥ هـ كما قال هنا وهو يريد عام ٣٨٥ على ما مرّ شرحه

(١) ١ : ١٣٣ (٢) ص ٦٢